أدبية المكرور في الخطاب القرآني

الدكتور: زغوان أمحمد
معهد اللغة العربية وآدابها.
المركز الجامعي مولاي الطاهر.
سعيـــدة
البريد الإلكتروني
[zeghouan@yahoo.fr]

من الشائع في أدبيات العربية " أن الأمر إذا تكرر تقرر" وصار في حكم الملزمات على سواء بين صيغ الأوامر أو صيغ النواهي ضمن مستويات الخطاب ومقرراته، فأدبية التكرار مثلا تغدو بآليتها اللغوية تلك ذات أبعاد محددة الأشكال والدوال ، فمنها على سبيل الإجمال أن التكرار حين إطلاقه يراد به التعبير عن شك المخاطب (بفتح الطاء) في الموضوع أو توهمه توهما يدفع بالمتكلم إلى تحصين كلامه من الاشتباه، أو قد يتقصد لغرض بلاغي يتغى منه إبراز فاعلية العملية التبليغية والإفضائية ضمن أحواز الجماعة اللغوية، أو يهدف إلى تثبيت صورة القضايا المهمة والتأكيد عليها، وإبقاء لها من هذا الطريق حية وحاضرة في حس المتلقي خاصة إذا كانت تلك القضايا ذات طبيعة تكرارية حيث يعمل التكرار على تأدية دور تثبيتي تذكيري بشكل لافت في المواقف المختلفة.

وحديثنا يتناول المسألة من هذا الجانب تحديدا ضاربين صفحا في هذا الحديث عما يمكن أن يثار نقضا لهذا المعنى من أن هناك تكرارا يصل إلى مستويات قاتمة من الروتين مثلما تشهد له حياتنا اليومية حيث يغدو حينها نوعا من الظهور الخفاء الذي لا يلفت نظرا، و لا يشد انتباها .

ومن سبيل حديثنا عن التكرار بالمعنى المراد ما يذكر للكندي الفيلسوف (ت 252 هـــ) من قوله لأبي العباس المبرد: " إني لأجد في كلام العرب حشوا، فقال أبو العباس المبرد: في أي موضع وجدت ذلك ؟. فقال: أجد العرب يقولون: عبد الله قائم. ثم يقولون إن عبد الله قائم. ثم إن عبد الله لقائم. والألفاظ متكررة والمعنى واحد ! "[1].

فهو يطرح بحسب تصوره للقضية من المعاني الظاهرة ما يصلح لأن يكون قاسما مشتركا في جملة طرائق التعبير الثلاثة بمعزل عن المرادات البلاغية التي يتغيى المتكلم رسم حدودها من الحدث الكلامي (لسان المقال) المشدود بمواقف تستدعي بذاتها حوامل لنمط النموذج اللغوي (لسان الحال)، وهو ما يتداركه أبو العباس على سائله قائلا له : " بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ فقولهم عبد الله قائم إخبار عن قيامه، وقولهم: إن عبد الله قائم، جواب عن سؤال سائل. وقولهم إن عبد الله لقائم جواب عن إنكار منكر قيامه فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعنى"[1].

وهكذا تتعدد أحوال الإجابة بتعدد مواقف المتلقين وأحوالهم ما بين الإخبار، والتساؤل، والإنكار وهو كل مثلث التواصل اللساني بأضلاعه الثلاث.

ومتى رصدنا معطى التكرار بالمفهوم العام وفي بعده العملي المتحقق في حياة الناس رأيناه أحد مكونات حياتنا الجماعية وأحد متعلقاتها، فهو يسفر عن وجهه في أكثر من موقف وحدث، فالطالب الراسب مثلا تمنح له فرصة ليتدارك نقائصه بالتكرار، ويرجع الفضل في حال تـــأهله دراسيا إلى التكرار كقيمة حتى قيل التكرار يعلم الشطار أي أن الشاطر لا يكون كذلك من النضج العقلي والإدراكي إلا بعد أن يراكم أحزمة من الخبرات تشكل وعيه بحاضره وتنير طريقه عبر آفاق المستقبل، فالشطارة والنباهة بالواقع ليست مسبوقة بعدم اتساقا مع سنة الله في الخليقة.

إن أهمية التكرار تدخل كل تفاصيل حياتنا بمعنى من المعاني، وإننا لنجد كثيرا من المكاتبات الإدارية في الدوائر الرسمية مثلا يكتب فوقها (مهم، مهم، مهم) تنبيها إلى ثقل ميزان القضية، وتأكيدا على أهميتها..

إن المتابع بالدرس لبلاغة الكلام العربي يخلص ــ كما يذكر الخطابي ــ إلى أمرين مهمين يدور عليهما محور الحديث عن التكرار، فهو ينص على أن " تكرر الكلام على ضربين: أحدهما مذموم وهو ما كان مستغنى عنه غير مستفاد به زيادة معنى لم يستفيدوه بالكلام الأول، لأنه يكون فضلا من القول ولغوا، وليس في القرآن شيء من هذا النوع.

والضرب الآخر ما كان بخلاف هذه الصفة، فإن التكرار في الموضع الذي يقتضيه وتدعو الحاجة إليه فيه بإزاء تكلف الزيادة في وقت الحاجة إلى الحذف والاختصار، وإنما يحتاج إليه ويحسن استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية بها، ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها، وقد يقول الرجل لصاحبه في الحث والتحريض على العمل عجّل عجل، وارم ارم.. وكقول الشاعر :

هلا سألت جموع كنـــ ـــدة يوم ولوا أين أينا

وقول الآخر: يا ل بكر انشروا لي كليبا يال بكر أين أين الفرار*

وقد أخبر الله عز وجل بالسبب الذي من أجله كرر الأقاصيص والأخبار في القرآن فقال سبحانه: ﴿ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون ﴾ القصص [51]. (2)

فتوصيل القصص بعضه بأثر بعض إبقاء لمقام العبرة والاتعاظ حاضرا في ذهن المتلقي، ويتيح له قياس تجربته المحدودة بحدود عمره على تجارب الآخرين، حتى لكأن تجارب الإنسانية منذ أقدم مخلوق إلى آخر مخلوق يغادر الكوكب

الأرضي تتناسخ في جواهرها وإن اختلفت أشكالها وظواهرها لأن النفس الإنسانية هي واحدة في أمراضها وأعراضها وأدويتها، وإن اختلفت بها الأعصر وفرق بينها الزمان والمكان.

لهذا كان عرض القصة القرآنية كرارا مرارا تأكيدا لهذا القاعدة وحملا على المعتاد الجاري فيما ألفه العرب من كلام، وتشوفا لغاية إعجازية وقف العرب دونها عاجزين.

قال ابن فارس : من " سنن العرب التكرار، والإعادة إرادة الإبلاغ بحسب العناية بالأمر، ومنه تكرار ذكر القصة في مواضع إعلاما أنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأي نظم جاء، وبأي عبارة عبَّر " (3).

وعليه فلا التفات لمن ظل يمدّ ويجزر ابتغاء التشغيب على مواطن التكرار في بعض آي التنزيل لأن الآفة قد تتولد من الفهم السقيم، أو استحكام العداوة المتعصبة .

فالتكرار بآلياته المقروءة بالصورة التي تسفر عنها سورتي " الرحمان " و" الكافرون " على سبيل المثال يكشف لنا عن مستويات إعجازية وبلاغية تتموقع ضمن سياقات تلك المواطن والمواقف المتنوعة التي تعالجها السورة القرآنية وتنوعها بحسبان أحوال المخاطب بين اليقين والظنون والرجحان ولكل حالة من أحوال النفس البشرية لبوسها .

ففي سورة " الرحمان " ـــ مثلا ـــ ذات النفس المكي تتواءم ومقام مكة كما أن سياقات أحوال قطّانها وطبيعة ثقافتهم تحتمل مثل تلك التكرارية علّنا نحس منهم من أحد، أو نسمع لهم ركزا خاصة مع تثبيت المعنى وإعادته بإجرائية التكرار تقريرا وتقريعا للمخالفين، وتثبيتا لقلوب المؤمنين.. ولتسمع مكة الإشارة المرة والمرتين والثلاث.. فلا معنى لجدال يتنكر للحقائق على الأرض وإلا كان يقصي

نفسه ابتداء، ويلغي ذاته من دائرة الحوار الذي ينفتح على الدائرة المخالفة والمعاندة طلبا للحق وبيانه، ومراهنة عليه في الأنفس والآفاق بكل ثقة واطمئنان.

إن لذلك نظائر وأشباها من صلب النص القرآني وتقريراته التكرارية فسورة " الرحمان " المشار إليها قبل يمكن أن تتخذ قاعدة للتدليل حيث أن الله سبحانه خاطب بها ـــ كما يذهب المفسرة ـــ الثقلين* من الإنس والجن، وعدد عليهم أنواع نعمه التي حباهم إياها ذاكرا فصلا من فصول تلك النعم المتجددة مشيرا إلى إقرارهم بها بموجب ما ينضح به واقع حياتهم العملي، وذلك مما يقتضي شكرهم الله عليها، وهي تعرب عن نفسها في جملة تفاصيل الحياة، " ويوبخ على التكذيب بها، كما يقول الرجل لغيره ألم أحسن إليك بأن خولتك الأموال، ألم أحسن إليك بأن خلصتك من المكاره، ألم أحسن إليك بأن فعلت كذا وكذا.. فيحسن منه التكرير لاختلاف ما يقرره به، وهذا كثير في كلام العرب وأشعارهم " (4).

وهذا مستوى إحساني يمتن به المنعم ويوثقه النص للذكرى، ولا معنى للمشاحة فيه، ونكرانه وهو في النصاب البداهي .

أما المستوى الذي يقف في الطرف الآخر من هذا السقف الإحساني الصريح فهو ذو طبيعة إشكالية قد تدفع للمناكفة والمجادلة واعتراض الخصوم ومن سبيلها قول القائل : بأي معنى يمكننا قراءة امتنان الله على الثقلين بما ليس من قبيل النعمة والامتنان ـــ ولو تجاوزا ـــ ، فهو أقرب للإدانة والوعيد والتهديد منه إلى شيء آخر من الأشياء المتعلقة بالآلاء ؟ وأي نعيم ينطوي عليه التبشير بالويل والثبور، وفظائع الأمور.

وما يشحذ لهذا الغرض غرض التمثيل فهو من سبيل قوله تعالى: ﴿يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران ﴾ الرحمان [35] ؟ فأي أفضال مسداة لهم في قوله ﴿يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ الرحمان

[41] أو قوله ﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون. يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ الرحمان [43 ــ 44] ؟.

" وكيف يحسن أن يقول بعقب هذا ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ الرحمان [35]، وليس هذا من الآلاء والنعم قيل: الوجه في ذلك أن فعل العقاب وإن لم يكن نعمة فذكره ووصفه والإنذار به من أكبر النعم لأن ذلك زجرا عما يستحق به العقاب، وبعثا على ما يستحق به الثواب، فإنما أشار بقوله تعالى ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ بعد ذكر جهنم والعذاب فيها إلى نعمته بوصفها والإنذار بعقابها، وهذا مما لا شبهة في كونه نعمة " [5] لأن " من حذر من طرق الردى وبين ما فيها من الأذى، وحث على طرق السلامة الموصلة للمثوبة والكرامة، كان منعما غاية الإنعام ومحسنا غاية الإحسان، ومثل ذلك قوله: ﴿هذا ما وعد الرحمان﴾ [يس. 52]، وعلى هذا تصلح فيه مناسبة الربط بذكر صفة الرحمان في ذلك المقام، ومن حق هذا التذييل ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ " لأن يسمى بالتعداد لا بالتكرار لأنه ليس تكريرا لمجرد التأكيد " [6].

ولا تعارض هناك وإلا غدا الأمر مجرد نقاش لفظي فقد يطلق التكرار مرادا به التذكير بالآلاء فيدخل في باب التعداد، فتكرارنا للشيء المرة والمرات هو نوع من التعداد له أيضا، وهو وارد في سياق قوله تعالى جده: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ .

إن التحذير والإنذار من ورود مواطن الهلكة والتنبيه عليها يعد من قبيل النعم متى عمقنا نظرتنا بطبائع الأشياء، فالجسم إذا ألم به طارق، أو نزلت به علة ينبه صاحبه بطريقة آلية إلى موطن الخلل والعلة، فيكون في تنبيهه ذلك أشبه بالجهاز الذي يومض بالضوء الأحمر لينبه صاحب الجهاز لأجل أن يسارع لتدارك الأمر قبل فوات الأوان واستفحال الشر.

وقد يكون الاقتصاص من المجرمين بموجب مقامات العدل الإلهي، ومجازاة أهل السوابق الإجرامية بحسب المحاضر المعدة لهم وفق المواصفات القبيحة التي نعتوا بها في النص القرآني من أكبر النعم التي يمتن الله بها على عباده بعد أن شفى صدورهم وثأر لهم ممن ظلمهم وسلبهم حقوقهم، فالذين أجرموا بصدى الوصف القرآني: ﴿كانوا من الذي آمنوا يضحكون. وإذا مروا بهم يتغامزون. وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين. وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ﴾ المطففين [29 ــ 30 ــ 31 ــ 32]، وقد توعدهم الله في الدنيا بقوله﴿سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون﴾ الأنعام [124].

ويتحقق هذا الوعيد في صورته الفعلية من خلال تصريحات النص القرآني بأن عذابه محيق بالمجرمين انتقاما ﴿ فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ الروم [47]، وعليه فالانتقام من أهل الإجرام وجعلهم يدفعون الفواتير والحساب يتناسب والرغبة الإنسانية في تحقيق العدل وإنصاف مظلوميها تمكينا للحق, وإحقاقا له، وتلك هي حكمة السماء المبثوثة في أهل الأرض وهذا يعد أحد هذه النعم المذكورة.

كما أن هؤلاء المتوعدين بالويل والثبور وفظائع الأمور في الغالب الأعم أن يُذكروا بصيغ العموم، وهذا مع علم الله المحيط بهم وبحالهم إلا أن ذكره لهم لا يخصصهم بأعيانهم بل يعمد الخطاب القرآني إلى تشريح وضعياتهم بالوصف وإغفال التعيين، على طريقة " ما بال أقوام يقولون كذا وكذا ؟... "، وكأن النص القرآني يراهن على عودتهم ، ويرجو أوبتهم، وقد يكون في هذا الإغفال ما يشي باستصغار شأنهم، وتهوين مقالاتهم وأمرهم، فهم أضأل مكانا من أن يحتازوا شرف الإشارة إليهم بأعيانهم في آي الذكر الحكيم.

وحتى يغدو هذا التوجيه صورة ماضية مكرورة يتمثلها الناس بمقدار ما انحرفوا، فيكون شاهد الإنعام في ذلك أن الله وضعهم بمثل هذا التوصيف المعدد

لمساوئ أعمالهم : سيرتهم كذا وكذا، وصنيعهم كذا وكذا .. فيكونون بوضعهم هذا مثل العوالم الهادية لنا ويلتمس المتعظ مصادق الاستقامة فيما ينضح به مفهوم المخالفة، وعلى المتلقي المنتمي أن يجهد جهده كيلا تنطبق عليه أوصافهم، أو يسير سيرتهم ويعمل عملهم، فهم ـــ كما يقال ـــ أشبه بالمنحة في محنة وهذا من جليل النعم وعظيمها حين نُحذّر من الشر ومصادره المجسدة عيانا في شخوص وأناس يتحركون بيننا، ويحتكون بنا.

وأما في قوله تعالى﴿ كل من عليها فان ﴾ [26]، " فإن التذكير بالموت والفناء للترغيب في الإقبال على العمل لدار البقاء وفي الإعراض عن دار الفناء " (7) من النعم العظيمة أيضا، ومن جليل ما تحيل عليه الآية الكريمة أن أولى الناس بالعمل لأجله وابتغاء قربه ومرضاته الواحد المتفرد بالبقاء والصمودية ما دام أن ما عداه فان زائل مهما علا شأنه واتسع سلطانه، فالقضية مسألة وقت فقط.

ولعل ما يقابل سورة " الرحمان " التي فيها تذكير بالآلاء وإسداء النعم، سورة " المرسلات " التي تنتهي بتذييل يشبه اللازمة، فعقيب كل آية نقف على قوله تعالى: ﴿ويل يومئذ للمكذبين ﴾، وتتكرر بشكل لافت: عشر مرات في أحواز الخمسين آية، مثلما تكرر قوله تعالى في سورة " الرحمان " ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾، ففي السورة الأولى نقف على تناسب يقتضيه السياق العام للسورة، ونمطية مطردة تجري وفق موجبات المقام، وكذلك في المرسلات نرى مثل ذلك الاتساق مع الموقف المتوائم مع أحوال التكذيب والمكذبين وظروفهم.

قال القرطبي التكرير " في هذه السورة عند كل آية لمن كذب لأنه قسمه بينهم على قدر تكذيبهم، فإن لكل مكذب بشيء عذابا سوى تكذيبه بشيء آخر، ورب شيء كذب به هو أعظم جرما من تكذيب بغيره لأنه أقبح في تكذيبه، وأعظم في الرد على الله، فإنما يقسم له من الويل على قدر ذلك" (8).

إذن فإن سياقات﴿ويل يومئذ للمكذبين ﴾ مكرورة تكرارا مختلفا باختلاف المعنى والمضامين، فتكون في هذه المقامية أقرب للتعداد ـــ كما أشرنا ـــ منها إلى التكرار المحض المفرغ من الدلالة البلاغية وتقريراتها.

ولعل تفاوت دركات التكذيب بتفاوت سقوفه يستتبعها تفاوت مقامات الوعيد والتشديد ، وعليه فالتكرار يحسن ويصيب مواضعه إذا كان المعنى المراد مختلفا.

إننا نرصد في السورة معنى محوريا عاما أشبه بما يعرف بمركزية النص القارة على

" التكذيب " حيث تدور في فلكها مجموع المعاني الأخرى، وزيادة في البيان نؤشر تحت النقاط المركزية في السورة وفق الحيثيات التالية:

1. قسم إلهي " والمقصود من هذا القسم تأكيد الخبر، وفي تطويل القسم تشويق السامع لتلقي المقسم عليه " [9].

وفي دلالة القسم شيء من معنى التكرار من جانب الأهمية وخطورة الموقف وعظيم الشأو. ثم نتابع مع الإشارة إلى اضطراب الكون في الدنيا إيذانا بنهاية العالم ليعقب ذلك توعد بالويل، ﴿ويل يومئذ للمكذبين ﴾ (المرسلات. 15). وجعل بعض المفسرين " هذه الجملة جواب (إذا) والتقدير: إذا حصل كذا وكذا حل الويل بالمكذبين وهو كالبيان لقوله ﴿إن ما توعدون لواقع ﴾ فيحصل تأكيد الوعيد[10].

2. توعد المجرمين بالهلاك كما فعل بأسلافهم في الدنيا توعد بالويل.

3. التذكير بخلق الإنسان من ماء مهين، وهي صورة مطردة بحكم الواقع الإنساني

والمشاهدة المحسوسة غير أن هذا الإنسان الظلوم الكفور لا يلتفت إلى عظمة الخلق ومراحله من نقطة تكاد تكون صفرية إلى رقم هام في معادلة الخلق ككل، ويشي السياق أن الإنسان كعادته قد قابل ذلك بالتكذيب وبسبيل هذا قوله تعالى﴿أو لم يرى الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾ (يس. 77) توعد بالويل.

4. تذكير بأفضال الله تعالى وإنعامه على الخلق، وهذا مدعاة للحمد والشكر في

نفسه : نعمة الخلق، وعوض أن يقابل ذلك بالشكر على النعماء، يعمد الإنسان كعادته إلى التكذيب كما هو ظاهر من فحوى الخطاب وعليه فهناك توعد بالويل.

5. وصف لجانب من مشهد هذا الويل أو العذاب يوم القيامة توعد بالويل

وفيه تخويف بتهويل هذا الموقف ودعوة النماذج البشرية التي تكرر ذواتها في أفكارها ومفاهيمها، وانحرافاتها وضلالاتها طول خط الزمن لأجل مراجعة النفس في تكذيبها.

6. وصف لحال المكذبين يوم الجمع والفصل وقد قضي الأمر، وانقطعت أسباب النجاة، والتجاوز عن

الخطايا، ولات يومئذ حين ندم وعيد بالويل.

7. بيان قدرة الله على البعث، ومواجهة المكذبين بسلطة الحجة وإبطال دعاوى التكذيب والمقام هنا

مقام حسرة وتلاوم والجزاء يصدر من جنس العمل اتفاقا مع سنة العدل الإلهي.

8. تذكير بعظيم منزلة المتقين، وهذا الموقف أشد إيلاما للمكذبين عندما يرون أناسا كانوا يعدونهم من

الأشرار في ظلال وعيون، وفواكه مما يشتهون أليس هذا الموقف أشد وطأة ووقعا على نفوس الكذبة العتاة حين يشعرهم ذلك بالخيبة والبوار ؟.

9. غاية المجرمين في الحياة أكل وشرب أو على رأي الشاعر:

إنما الدنيا طعام ونساء ومنام فإن لم يكن في الدنيا ذا فعلى الدنيا السلام

وفي موقف قرآني آخر ألحق هذا التصور للحياة بالطبيعة البهيمية، التي مدار اهتمامها دائر على تلبية مطالب الغريزة الحيوانية، إذ كلما خبت إشعاع الروح وإشراقتها زاد ابتعادها عن مصدرها الأزلي الذي تستمد منه ذلك البهاء والصفاء، ثم انحدرت إلى ثقلة الطين وأوحاله حيث يتيقظ حينها صوت الغريزة الكثيف الحس، ليتسافل المرء إلى دركة العجماوات من الحيوانات، وحينها يجد العاقل نفسه إذ كتب له صحوة ضمير وجها لوجه مع النفس الأمارة، والنفس اللوامة ويصبح يبحث في رحلة طويلة عن النفس اللوامة. وإن نتيجة ذلك أن يستشعر المرء أن الإجرام كل الإجرام أن يتنكر المرء لعقله ويتنازل عن إنسانيته لدرجة استحقاق وعيد خالقه ويل يومئذ للمكذبين.

10. ذكره تعالى لتكبرهم عن عبادته تعالى في الدنيا فاستلزم ذلك أن يحل بهم وعيده، ويترل بهم عقابه على ما فرطوا في جنب الله، والقاضي بـــ وعيده بالويل.

ويرى بعض المفسرين أن جملة ﴿ويل يومئذ للمكذبين ﴾ " صالحة لمعنى الخبرية ولمعنى الإنشاء لأن تركيب (ويل له)، يستعمل إنشاء، والويل أشد السوء والشر" (11).

وهكذا تختلف المعاني باختلاف المقامات والأحوال، وأن لكل مقام معنى ليس في سابقه وإن تكرر ذلك على سبيل التقرير والتأكيد والتعداد، وبما يتسق وأجواء التهديد والوعيد الذي يُراهن عليه في إحداث أثر عكسي في حياة الناس، فالتنبيه على خطورة النار، وما يمكن أن تجلبه من أسى وحسرات ، وهي دعوة صريحة لاجتنابها ، وعدم التقرب منها أو الثقة بها.

والسورة الأخرى التي ترد من طريق التكرار الذي عَنوَنا له يخص سورة " الكافرون " فنجد أن التكرار في نسقها أحد الصيغ التي يقتضيها المقام إذ قضية التوحيد والولاء والبراءة من القضايا الشديدة الحساسية في عقيدة المسلم، ومن المسائل الملحة والمتكررة، ولذا حسن تثبيتها هنا بالتكرار حسما لأي تأويل، وتثبيتا لصورة المفاصلة الشعورية بين عقيدة التوحيد وعقيدة الكفر والوثنية. وذكر في الكشاف والإتقان أن هاته السورة " تسمى هي وسورة قل هو الله أحد بالمشقشقتين لأنهما تقشقشان من الشرك أي تبرئان منه. يقال قشقش إذ أزال المرض " [12].

والقرآن بطريقته تلك لم يسك طريقا جديدا خارجا عن المعهود من أساليب العربي بل أهل العلم على أنه " نزل بلسان القوم وعلى مذاهبهم، ومن مذاهبهم التكرار.. إرادة التوكيد والإفهام كما أن من مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز.. وقد يقول القائل في كلامه، والله لا أفعله ثم والله لا أفعله إذا أراد التوكيد، وحسم الأطماع من أن يفعله.. قال الله عز وجل ﴿كلا سوف تعلمون. ثم كلا سوف تعلمون ﴾ التكاثر [3 ــ 4]. وقال:﴿ فإن مع العسر يسرا. إن مع العسر يسرا﴾ الانشراح [5 ــ 6]، وقال: ﴿أولى لك فأولى. ثم أولى لك فأولى ﴾ القيامة [34 ــ 35].[13]

ولعل معرفتنا بأسباب نزول السورة تضيء لنا جانبا مبهما يسمح لنا بإسقاط النص على مواقع ومقامات شبيهة بحال المورد الرئيس، ويتيح لنا الاطلاع

على ملابسات الواقع الإنساني وتشاكل الأحوال والتجارب، وإن حَكَمها عنصر التغاير والتنوع في التفاصيل والجزئيات .

فالثابت من أخبار القوم ــ كما يقول الرواة ــ أن قريشا ساومت* الرسول ﷺ في دعوته لأنهم كما يقول ابن قتيبة (ت 276 هـــ) : " أرادوه على أن يعبد ما يعبدون ليعبدوا ما يعبد، وأبدوا في ذلك وأعادوا، فأراد الله عز وجل حسم أطماعهم وإكذاب ظنونهم، فأبدى وأعاد في الجواب، وهو معنى قوله ﴿ودوا لو تدهن فيدهنون ﴾ القلم [3 ــ 4] أي تلين في دينك فيلينون في أديانهم " [14].

فالشرك بهكذا خطوة يهدف إلى إظهار صاحب الرسالة بمظهر التاجر الذي يبيع ويشتري، ويبادل سلعة بأخرى، أو يجري البيع بالتزيلات في مواقف أخرى، وحينها يكسب الشرك ودعاته أضعاف ما يريدون، ويعلون سقف مطالبهم، وهم في ذلك كله يبحثون عن مصداقية ضائعة من احتكاكهم بأصحاب الرسالات والدعوات طمعا في تسوية الحق بالباطل ووضعهما على نفس الخط، وفي ذلك ما فيه من تجيير للباطل وإكسابه مصداقية على حساب الحق وأشياعه من أصحاب الدعوات والرسالات.

وهي القضايا التي كان القرآن يتزل لمعالجتها شيئا بعد شيء، وآية بعد آية بحسب

ما تقتضيه وقائع التزول " فكأن المشركين قالوا له: أسلم ببعض آلهتنا حتى نؤمن بإلهك فأنزل الله ﴿لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ يريد إن لم تؤمنوا حتى أفعل ذلك، ثم غبروا مدة من المدد وقالوا تعبد آلهتنا يوما أو شهرا أو حولا، ونعبد إلهك يوما أو شهرا، أو حولا فأنزل الله تعالى: ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ على شريطة أن تؤمنوا به في وقت وتشركوا به في وقت . قال ابن قتيبة : وهذا تمثيل أردت أن أريك به موضع الإمكان [14].

وحكوا عن أبي العباس ثعلب أنه قال: " إنما حسن التكرار لأن تحت كل لفظة معنى ليس هو تحت الأخرى، وتلخيص الكلام: قل: يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون الساعة وفي هذه الحال، ولا أنتم عابدون ما أعبد في هذه الحال أيضا، فاختص الفعلان منه ومنهم بالحال، وقال من بعد: ولا أنا عابد ما عبدتم في المستقبل، ولا أنتم عابدون ما

أعبد فيما تستقبلون، فاختلفت المعاني وحسن التكرار لاختلافها، ويجب أن تكون السورة على هذا الجواب مختصة بمن المعلوم من حاله أنه لا يؤمن، وقد ذكر مقاتل وغيره أنها نزلت في أبي جهل والمستهزئين، ولم يؤمن من الذين نزلت فيهم أحد[15]*.

وفي أمالي المرتضى أن مغزى التكرار يراد منه تحقيق معنى تمام العبودية، وخلوصها لله، ولا بد فيها من المفاصلة والتميز عن جهلة المشركين وما يهرفون به من أضاليل وأباطيل، فذكر لهم الرسول ﷺ بتوجيه من ربه " إنني لا أعبد الأصنام التي تعبدونها، ولا أنتم عابدون ما أعبد، أي أنتم غير عابدين الله الذي أنا عابده إذا أشركتم به، واتخذتم الأصنام وغيرها معبودة من دونه أو معه، وإنما يكون عابدا له من أخلص له العبادة دون غيره، وأفرده بها، وقوله ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾ أي لست أعبد عبادتكم، وما في قوله: ﴿ما عبدتم﴾ في موضع المصدر كما قال تعالى ﴿ والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها﴾ الشمس [6 ــ 7]. أراد وطحيه إياها وتسويته لها وقوله تعالى:﴿ ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تمرحون﴾ غافر [75] ، يريد بفرحكم ومرحكم.. ومعنى قوله ﴿ولا أنتم عابدون﴾ أي لستم عابدين عبادتي، وتلخيص ذلك أن النبي ﷺ قال للكفار لا أعبد آلهتكم، ومن تدعونه من دون الله، ولا أنتم عابدون إلهي، فإن زعمتم أنكم عابدون إلهي فأنتم كاذبون إذ كنتم من غير الجهة التي أمركم بها تعبدونه، فأنا لا أعبد مثل عبادتكم، ولا أنتم ما دمتم على ما أنتم عليه تعبدون مثل عبادتي " [16].

وقيل " المراد بقوله: ﴿ لا أعبد ما تعبدون﴾ نفى الفعل لأنها جملة فعلية ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾، نفى قبوله لذلك بالكلية لأن النفي بالجملة الاسمية آكد، فكأنه نفى الفعل، وكونه قابلا لذلك، ومعناه نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي أيضا " (17).

والنفي بالماضي يدل على أن الحدث الماضي جزء يتواصل في الزمن بخط مستقيم مع زمن مخاطبة الرسول ﷺ للدلالة على أن هذه المفاصلة بين التوحيد والوثنية هي قضية واحدة، وأنها إحدى الأساسيات التي يقوم عليها بناء التوحيد منذ الزمن الماضي إلى الزمن الحاضر فزمن الخطاب فوق حدود الزمنية والظرفية.

كما جيء في السياق ذاته أيضا بالفعل الماضي أيضا في قوله ﴿ما عبدتم ﴾ للدلالة على أن قلوبهم أشربت عبادة الأصنام والأوثان من الزمن الماضي .. وأتى ب (ما) كما يقول البلاغيون الموصولة لقصد الإبهام وإفادة المبالغة في التفخيم كقول العرب: سبحان ما سبح الرعد بحمده، نظير قوله تعالى ﴿والسماء وما بناها ﴾ *.

وزيادة في تثبيت هذه الصورة التاريخية نفى بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والاستمرار باعتبار أن التركيب الاسمي خلو من الحدث، ولدلالتها كذلك على التقرير ونفي المداهنة سواء بدلالة الحدث والزمن، أو بدلالة الثبات والاستمرار التي تفيدها الجملة الاسمية.

وعموما فالتكرار هنا كما يقال يأتي لطرد الغفلة وتأكيد الحجة، وكأن السورة جارية مجرى قول من قال : نحن بما عندنا وأنت بما *** عندك راض والرأي مختلف.

يرى بعض المفسرين أن التكرار في آي التنزيل الحكيم ينحو ناحية بيداغوجية يراد تقريرها كحقائق في حس المتلقين ممن ينتمون للمنهج القرآني بصفة خاصة إذ " تكرير الوعد يدل على الاهتمام بالطاعات ترغيبا في ثوابها، وتكرير

الوعيد يدل على الاهتمام بترك المخالفات ترهيبا من عقابها، وتكرير القِرَان بين الوعد والوعيد يدل على الاهتمام بوقوف العباد بين الخوف والرجاء، فلا يقنطوا من رحمة الله وأفضاله، ولا يغتروا بحلمه وإمهاله، وتكرير الأحكام يدل على الاعتناء بالإيضاح والبيان، وتكرير تذكير النعم يدل على الاعتناء بشكرها. واعلم أنه لا تؤكد العرب إلا ما تهتم به فإن من اهتم بشيء أكثر ذكره، وكلما عظم الاهتمام كثر التأكيد، وكلما خفّ، خفّ التأكيد، وإن توسط الاهتمام توسط التأكيد[18].

ثم إن هناك أمرا آخر شديد الصلة بالمنحى الفني للتكرار وبلاغته ويتعلق هنا بالحرف الذي لا نفوت التعريج عليه تأكيدا للمبدأ العام في النص القرآني لا يعتريه الضعف في التأليف من كثرة الكلام على غرار الكلام العادي ، وذلك حتى مع اعتماده أسلوب التكرار كحامل جمالي يتضام فيه الإمتاع بالإنفاع ، وإن أبسط جزء من التركيب القرآني كالحرف مثلا ـــ كما يقول الرافعي ـــ لا يخلو من مسحة إعجازية. قال تعالى: ﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هو قوم طاغون. أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون. فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون. أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون. أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون. أم لهم سلّم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين. أم له البنات ولكم البنون. أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون .أم عندهم الغيب فهم يكتبون ﴾ [الطور. 32 إلى 41].

فالحرف البارز هنا هو " الميم " أي أربعين ميما مكررة ضمن عشر آيات دون أن

يخل ذلك بالنسق العام للآيات، بل أضفى حرف الميم زخما ووقعا خاصا حيث نجد الحرف أكثر انسجاما ومؤانسة مع نظرائه من الحروف الأخرى دون إحداث أدنى نتوءات أو نشاز، ويحتاز الحرف مكنة وموقعية داخل البنية لا تقل بدلالتها

وحضور معناها عن أية لفظة أخرى داخل نسيج التركيب ونظام الإعجاز في النص القرآني.

ولو أخذنا ـــ على وجه المثال ـــ ما ينسبه اللغويون على سبيل التشغيب لأحد النحوية من قوله ـــ وقد أحاط به قوم عقب سقوطه عن حماره ـــ " مالكم تكأكأتم علي كتكأكئكم على ذي جنة، افرنقعوا "، فمثل هذا الكلام منهد الأوصال، منفك البناء يمجه الذوق، وتعافه بلاغة العربية لأن حرف الكاف لم يكن في موضع أثقل منه في هذا الموضع للنشاز والصخب الذي صاحب تكراره، وليس تكرار الكاف كتكرار الميم ولا القاف في قول الشاعر العربي :

وقبر حرب بمكان قفر *** وليس قرب قبر حرب قبر

ولا يسمع عربي مثل هذا المستوى من التكرار إلا كره سماعه، لأنه لا يجد منه في نفسه غير الإعراض والجفاء بخلاف حرف الميم في ألفاظ الآيات الكريمة المتقدمة، وخاصة مع الهمزة (أم) حيث تمثل مقاطع يتوقف عندها القارئ بقصد التملي، واستدعاء دلالة كل مقطع، ثم إن لحرف الميم صوتا مميزا وخاصا، ولا يزال بلفظه مستعملا في محادثاتنا العامية خاصة في المواطن التي نعجب فيها من حديث ما أو موقف بعينه، أو حال استعظامنا لأمر، أو تصغيرنا لشأن فنقول (أمْ مْ مْه) كنوع من التعبير عن احتيارنا واستهجاننا لنمط سلوكي يشذ عن قاعدته فيقابَل بالإغراب والإنكار والتعجيب.

يروي أحد الصحابة وكان إذ ذاك مشركا أنه سمع النبي ﷺ " يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون. أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون. أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرو ن﴾ قال: كاد قلبي أن يطير.. فكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام " (19).

وهذا أصدق تمثيل لوصف الحالة العامة التي كان يتلقى بها الصحابي الوحي وهو عربي صليبي عاش تجربة الإيمان جامعا فيها بين صفاء الفطرة البشرية، وعظمة

الوحي الذي يتملى بعين البصيرة فيحدث الزلزال على مستوى الأنفس في الفكرة والعاطفة والمشاعر، فتراها خاشعة متصدعة.

إن إجرائية التكرار في الخطاب القرآني ليست مرادة لذاتها على عادة العربي في مخاطباته، ولا لأجل التأنق الجمالي في النص طلبا لمتعة الفكر، وتزجية الفراغ مع ما يصحب ذلك من الإغراض إلى ترويح النفس وإناسها ، بل إن سر المعجزة الذي يسري في أنحاء النص : كلماته وحروفه هو الذي يحول دون تلمس الأثر الذي يختلف الناس حواليه فلا يتأتى لهم تحديده، ولا الوقوف على حقيقته وكنهه، بل يبتعد كلما اقتربنا، ويكبر كلما زعمنا أننا أحطنا، وهنا تكمن روعة البلاغة وعظمة الإعجاز الذي يبقى مستمرا بهذه الخصوصية في الزمن وتتوارثه الأجيال فلا يبلى مع الزمن، ولا يكشف له سترا وإنما يتحدث الناس فقط عن الأثر لا غير وكل منهم غارف من بحاره بحسب ما يسعفه جده واجتهاده فتتفرق آراؤهم، ويتحدث هؤلاء وأولئك، ويلتقون في أنه معجزة الله في خلقه وأنه خبر السماء للأرض.

إن ظاهرة التكرار بيداغوجيتها تلك تغدو معلما بارزا من معالم الأدبية الإعجازية في البيان القرآني القائم على معادلة التناسب بين المباني والمعاني الموصولة بسقوف المعجز، فيحتاز نص القداسة بهذه الميزة الشريفة فضاء الفرادة والفذاذة التي ينقطع بها عن النظير والعديل وهو في كل أحواله يسك طريقته وفق النجر العربي الأصيل، ويغرف من منابعه ويتعرف إلى المخاطبين بهويته المعلن عنها .. لسان عربي مبين .

1ــ البلاغة (تطور وتاريخ). د. شوقي ضيف. دار المعارف مصر. ص181.

- البيت الأول ينسب إلى عبيد الأبرص نقلا عن الديوان، والثاني هو لمهلهل ربيعة نقلا عن
- الأغاني. على هامش ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. ص53.

2ــ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. دار المعارف. مصر . الطبعة (2). 1968م. ص52.

3ــ الصاحبي. ابن فارس. مكتبة المعارف. بيروت. الطبعة (1). 1993م. ص 214.

• يرى صاحب التحرير والتنوير أن دلالة ضمير المثنى في قوله تعالى: ﴿ ربكما تكذبان ﴾ خطاب لفريقين من المخاطبين بالقرآن.. خطاب للمؤمنين، والكافرين الذين ينقسم إليهما جنس الإنسان المذكور في قوله:﴿ خلق الإنسان﴾ ينظر: التحرير والتنوير. الطاهر بن عاشور. الدار التونسية للنشر. والمطبعة الوطنية للكتاب. الجزائر. ج243/27.

والظاهر أن تأويل الخطاب بدلالة توجيه صفة التكذيب للمؤمنين بعيد جدا، فالمكذب غير المؤمن، وربما كان المخاطبون بالتكذيب ــ وهو محتمل ــ هم الكتابيون والوثنيون من مشركي العرب.

4ــ أمالي المرتضى. الشريف المرتضى. تحــ. محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الكتاب العربي. بيروت . الطبع (2). 1967م. ج123/1، وينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. ص52 وما بعــدها..

5 ــ أمالي المرتضى. الشريف المرتضى. ج127/1.

6ــ محاسن التأويل. جمال الدين القاسمي. دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي وشركاه)

طبع (1). 1958م. ج259/1. وينظر: التحرير والتنوير. الطاهر بن عاشور. ج246/27.

7 ــ محاسن التأويل. جمال الدين القاسمي. ج260/1.

8 ــ الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. دار الكتب المصرية. القاهرة. طبع. 1933م.ج19/ 140.

9ــ التحرير والتنوير. الطاهر بن عاشور. ج419/29.

10ــ المـــــصدر السابق. ج427/29.

11 ــ نفسه. ج419/29.

12ــ نفسه ج579/30.

13ــ تأويل مشكل القرآن. ابن قتيبة. دار التراث. القاهرة. الطبعة (2).1973م. ص235 وما بعدها.

• ــ يروي الرواة " أن رسول الله ﷺ كان يطوف بالكعبة فاعترضه الأسود بن المطلب، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، وكانوا ذوي أسنان في قومهم فقالوا : يا محمد هلمّ فلنعبد ما تعبد سنة، وتعبد ما نعبد سنة، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيرا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيرا مما تعبد كنت أخذت بحظك منه. فقال معاذ الله أن أشرك به غيره فأنزل الله فيه " قل يا أيها الكافرون" .. وعن ابن عباس: فيئسوا منه وآذوه وآذوا أصحابه [ينظر التحرير والتنوير. الطاهر بن عاشور. ج580/30].

14ــ تأويل مشكل القرآن. ابن قتيبة. تحــ. أحمد صقر. ص237 وما بعــدها.

15ــ أمالي المرتضى. الشريف المرتضى. ج121/1.

* ــ المستهزئون هم العاص بن وائل السهمي، والوليد بن المغيرة، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، وعدي بن قيس. [ينظر. أمالي المرتضى. الشريف المرتضى. الجزء والصفحة].

16ــ المصدر نفسه. ج122/1.

17ـ تفسير ابن كثير. تقديم. عبد القادر الأرناؤوط. دار الفيحاء. دمشق. دار السلام الرياض. طبع (1). 1994. ج1/ 727].

- التحرير والتنوير. الطاهر بن عاشور. ج582/30 وما بعدها.

18 ـ القول للحسين بن الفضل الكوفي النيسابوري (ت 282 هـ)... التحرير والتنوير. الطاهر بن عاشور.. ج246/27.

19 ـ تفسير ابن كثير. ج311/4 بتصرف.